من وراء أستار الظلام

كنت على موعد مع محدثى حيث سعيت إليه؛ لأحصل منه على حديث.... وجلست أنتظره فى مكان عام حتى شاهدته قادما من بُعد قريب بصحبة رفيق يرشده الطريق، فيما هو قد أمسك بيمناه عصا يتحسس بها طريقه.... وعندما اقترب من مجلسنا بادرته بالتحية، وأخذت بيده إلى المقعد فتلمسه، ثم جلس واستراح عليه. وقد شكرته على قدومه إلى هذا اللقاء وما تجشم من مشقة فى سبيله - وكان محدثى قد وصل فى دراسته إلى مرحلة الدراسات العليا بإحدى الجامعات.

وابتعدت عن الحديث عن وصف المكان الذى نجلس فيه وما يحف به من أشجار ومناظر خلابة مراعاة لضيفى الكفيف. غير أننى دون قصد منى أمسكت بعصاه التى وضعها بجانبه، وأخذت أمتدح شكلها ولونها وطريقة صنعها، ويبدو أن ذلك قد لاقى استحسانا من نفسه، فابتسم ابتسامة عريضة.

فأدركت على التو أن ابتسامته تحمل أكثر من معنى. . . وما لبث أن قال:

عكـــازتي هـــي ناظـــرى   هــل في جمــاد مــن بصــر؟

فعقبت على ذلك بقولى ـ قد يكون الإنسان كفيفا، ولكن البصيرة أقوى من البصر. . ثم ساد الصمت بيننا برهة احتسينا خلالها ما قدم إلينا من مشروبات.

ولما كان الهدف من اللقاء هو التحدث عن دنيا المكفوفين، فقد كنت حريصا أن أترفق بمحدثى، وأن أفسح له فرصة الإفاضة فى الحديث. . . وانتظرت قليلا وأنا لا أفاتحه فى موضوع الحديث حتى بادرنى بلهجة جادة:

كنت قد طلبت منى أن نتحدث فى موضوع رؤى المكفوفين وأحلامهم. . . . فما هى النقاط التى ترغب فى أن نبدأ الحديث منها؟

قلت: أرجو أن توضح لى بعض الأمور التى سوف تساعدنى فى هذا البحث.

قال: بكل سرور

قلت: أعتقد أن هناك فارقا كبيرا ـ فى القدرة على التصور ـ بين شخصين: أحدهما ولد كفيفا، والآخر كُفَّ بصره بعد سنوات من مولده.

قال: نعم، فقد فقدت بصرى وأنا فى سن الحادية عشرة تقريبا.... ولكننى ظللت بعدها ولعدة سنوات قادراً على استرجاع هيئة الأشخاص الذين كنت أعاشرهم، وكذلك استرجاع الأوضاع والمناظر التى كانت تحيط بى، كما أننى كنت قادراًعلى استرجاع بعض الانطباعات الشكلية واللونية للأشياء، وخاصة إذا ما اقتربت منها ولامستها أو شممت رائحتها أو تذوقت طعمها أو سمعت لها صوتا.... غير أنه بمرور الزمن أخذت هذه القدرة فى الاضمحلال، وبالتالى زالت تلك الصور وما علق منها فى مخيلتى... وأصبح استرجاع أية مواصفات لتلك الأشياء أو جزء منها غاية فى الصعوبة، وصار ذلك لا يتم إلا عن طريق العودة إلى تحسسها عن طريق الحواس الأخرى..

وقد أستطيع أن أحس إحساسا عامابهيئة الأشجار، غير أنه لا يمكننى أن أعيد إلى ذاكرتىهيئة جذعها إلا إذا لمسته يداى، كما أننى لا أستطيع أن أحس بشكل أوراقها أو ثمارها إلا إذا تحسستها واقتربت منها وشممت رائحة أزهارها إذا كان لها زهر...

قلت: وماذا عن تركيب الصور...؟وهل يمكنك إدراك الصور الخيالية؟!

قال نعم إلى حد ما، وغالبا ما يختلف ذلك من كفيف إلى آخر...

فمثلا إذا سمعت الرعد شملني إحساس عام أمكنني على أثره أن أتوهم ظلمة السماء وتزاحم السحب... وإذا سمعت صوت قطرات المطر ازدادت الأخيلة وضوحا في نفسي، حتى إذا سقطت على بعض حبات المطر اقتربت معالم الصورة في نفسي، وأصبح لها انفعال خاص... ينبعث في نفسي.

وكذلك إذا ما سارت بالقرب مني سيارة وسمعت صوت آلاتها استطعت أن أتوهم لها شبحا، وإذا ما أطلقت نفيرها للتحذير زادت شخصيتها في ذهني ونفسي.... أما إذا تحسست جسم السيارة وركبتها وسارت بي فإن الانسان في هذه الحالة يحس بيديه شيئا كثيرا من الحقيقة....

قلت: ذلك يعني أنه كلما تعددت أسباب الحس والإثارة كان ذلك دافعا لتجيد هيئة الشيء رويداً رويداً.

قال: تماما

قلت معقبا... في هذا الصدد يمكننا أن نقول إن الأخيلة في ذهن المكفوف تكون على هيئة أشباح غير محدودة الشكل طالما أنه لم يستخدم حاسة اللمس والحواس الأخرى، وقد لا تختلف هذه الأشباح في أذهان المكفوفين من ناحية النوع، ولكنها تختلف من ناحية الدرجة، وخاصة درجة الأثر النفسي.

كما أننا نستطيع أن نقول إن انعدام الانطباعات وافتقار عقل الكفيف إليها يؤدي به إلى انعدام القدرة على التخيل وتشكيل الصور الخيالية.

وفى الحقيقة أنه يمكننا بتجربة بسيطة أن نتحقق من أنه إذا ما أطال الإنسان النظر إلى شيء ما ثم حجب بصره عنه بعض الوقت فإنه سوف يحس بزوال مدركاته وانطباعاته عن هذا الشيء تدريجيا. .

واستطردت أسأل محدثى:

وما مدى قدرتك على استرجاع الألوان؟

قال ـ قد يكون لدى الكفيف الذى كف بصره فى طور الشباب قدرة على استرجاع أطياف الألوان ـ والتفريق ذهنيا بينها ـ وخاصة الألوان الرئيسية مثل الأحمر والأصفر والأزرق ـ أى أن الأزرق غير الأحمر والأحمر غير الأصفر وغير الأخضر، غير أن هذه القدرة تزول تدريجيا، ويصبح الأمر بالنسبة للتفريق بين هذه الألوان حالة سماع ذكرها عملية عقلية بحتة لا صورة لها. . . .

وأردف محدثى يقول: وتتوقف درجة القدرة على الاسترجاع على وضوح المختزنات السابقة والمحتويات الذهنية ومدى ما أمكنه من الحفاظ على الانطباعات عند فقد بصره. . . . غير أن هذه المحتويات تزول تدريجيا بمرور الزمن

ولكن من المكفوفين من يقول إنه يمكنه استرجاع صور أهله وأقربائه وإن كانت هذه الصور غير واضحة تماما. . . . كما إن منهم من يقول إنه يمكنه استرجاع الجو المحيط واستلهام الصور. . . .

أما من ناحية قدرة الكفيف على التخيل وتركيب الصور والأخيلة فإنه يقال دائما إن فقدان البصر كثيرا ما يؤدى إلى إرهاف الحواس الأخرى، وبالتالى فإن القدرة على التخيل وتركيب الصور ـ بمساعدة الحواس الأخرى ـ قد تكون فائقة من ناحية الدرجة والكيفية إذا ما قورنت بنفس القدرة لدى الشخص المبصر السوى.

ويقول بعض المكفوفين إن حواس اللمس والشم والسمع، وربما حاسة الذوق أيضا كثيرا ما تساعدهم على تركيب الصور فى أذهانهم. . . . فمن السهل على الكفيف إذا لمس صنبور المياه أن يعرف كيف يديره فينساب منه الماء، وعندئذٍ تكتمل الصورة فى ذهنه.

وقد يؤدى عدم إمكان لمس شىء معين إلى عدم القدرة على تحديد بعض مواصفاته، وبالتالى إلى انبثاق أخيلة مختلفة تختلف من شخص إلى آخر، وعلى سبيل المثال: من إخواننا المكفوفين من لم ير الأسد قبل أن يكف بصره، كما أنه لا يستطيع الاقتراب منه أو لمسه. . . . ولكن فى حالة سماع زئير الأسد فإن ذلك بلا شك سوف يساعده على تركيب صورة ذهنية على نحوما لهذا الحيوان حسب وقع الصوت فى نفسه.

واستطرد محدثى يقول:

أما الإنسان الذى جاء إلى الحياة كفيفا فلم ير النور، فإنه يصير عاجزاً عن تركيب أى نوع من الأخيلة إلا عن طريق اللمس

واستخدام الحواس الأخرى، فيمكنه إذا لمس نوعين من الفاكهة كالبرتقال والعنب مثلا: - أن يفرق بينهما فى الشكل والحجم والتركيب والخشونة أو النعومة، وغالبا ما تزداد خبرته إذا ما تذوق طعمهما أو اشتم رائحتهما.

قلت: وما هى الحاسة التى تجىء فى الترتيب الأول بالنسبة للكفيف؟

قال: إن حاسة اللمس تعتبر الحاسة الأولى التى يعتمد عليها، فهى التى تساعده على التعرف على العالم الخارجى....ولا شك أنه بمرور الوقت يكتسب مهارة كبيرة فى هذا الاتجاه، وكثيرا ما يؤدى به ذلك إلى حفظ الكثير من الأوضاع والانطباعات.

ويأتى بعد ذلك فى الأهمية حاسة السمع، فبها يستطيع الكفيف أن يحدد المسافات التى تفصل بينه وبين مصدر الصوت.... ثم يحاول أن يتجنب مصادر هذه الأصوات إذا ما كانت هناك خطورة منها.

ثم يأتى بعد ذلك فى الأهمية حاستا الشم والذوق؛ فهما الوسيلتان اللتان تضيفان معلومات جديدة إلى دنيا الضرير.

وتمهلت قليلا، ثم سألت محدثى: وهل يحلم الكفيف؟ وماذا يتراءى له فى منامه؟

وسكت محدثى برهة: ثم قال من الطبيعى أن يحلم الكفيف؛ فهو كبقية البشر تنقسم حياته إلى الشعور واللاشعور، والأحلام -

كما نعرف ـ تصاحب النوم للإبقاء عليه، غير أن الكفيف لا يرى صوراً واضحة المعالم فى منامه، ولكنها أخيلة لرموز معينة تتراءى له، وقد يتألف منها حلم معين. . . . كما أن الكفيف قد تطوف به أطياف تبعث فى نفسه الفرح والبهجة، كما أنه يتعرض لما يتعرض له الأسوياء من مخاوف واضطرابات أثناء النوم.

قلت: هناك سؤال أخير أرجو أن تختم به الحديث.

ما مدى إحساسك بالارتفاع؟. . . . أقصد الأماكن المرتفعة

قال: إن الإحساس بالخوف هو الإحساس الوحيد الذى يراودنى إذا ما كنت فى مكان يقال عنه إنه مرتفع، ويزداد هذا الإحساس زيادة كبيرة إذا لم يكن هناك من يصاحبنى ويرشدنى إلى الطريق.

ومن ذلك يتضح أن الكفيف غالبا ما يكون شديد الحساسية بالنسبة لتلك المرتفعات والمنخفضات التى تصادفه فى الطريق، ويرجع ذلك إلى فقدان الأمن الذى يلازمه أثناء سيره خشية الاصطدام أو السقوط، وهذا ما يدفع الكفيف إلى الحذر الشديد أثناء السير. . . . . وعندما انتهى الحديث

قلت لمحدثي وأنا أساعده على النهوض: أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك

فقال مبتسما على العكس، لقد أتحت لى فرصة الحديث عن نفسى، فرافقته مودعا شاكراً.

مدى قدرة الإنسان على التعلم واكتساب الخبرات برغم فقدان بعض الحواس

يسوقنا الحديث ونحن نستمع إلى ما يقع وراء أستار الظلام إلى البحث عن مدى قدرة الإنسان على التعلم واكتساب الخبرات فى حالة فقدان بعض الحواس - مثل حاسة البصر أو حاستى السمع والبصر معاً. . . .

وهنا تجدر الإشارة إلى ما يحدث فى معاهد تعليم الصم والبكم وما يقدم إليهم من وسائل للتعليم، وفى مقدمتها طريقة بريل Braille لتعليم العميان، وما يكتسبونه من خبرات بمزاولة مختلف أنواع الأعمال اليدوية، حتى إن منهم من يبرع فى هذا المجال حتى تكاد براعته تعادل براعة الآخرين من الأصحاء.

غير أن العلم قد يبحث دائما عن النماذج؛ ليتخذ منها مقاييس يرنو إليها الباحثون.

ولما كانت (هيلين كيلر) تعتبر نموذجا رائعا للطموح البشرى فى ميدان التربية والتعلم، فإننى أسوقها هنا كمثال يستشهد به فى هذا الصدد.

*** مَدى قدرة الإنسان على التعلم برغم فقدان بعض الحواس**

في بداية عام ١٨٨٠، وهناك في ولاية ألاباما الأميريكية ـ في منزل كأنه الفردوس الصغير تحيط به البساتين المثمرة، وتمرح حوله الماشية من كل نوع ـ وتغطى جدرانه أغصان الكروم النامية، وفروع شجيرات الورد المتسلقة بأزهارها النضرة.

وكان الناظر إلى هذا البيت كأنما يبصر كومة من الأوراق الخضراء تزركشها ألوان من الأزهار اليانعة البديعة، تطوف فوقها أصناف الطيور المغردة وتطن حواليها أسراب النحل النشيطة، وترفرف قريبا منها جماعات الفراش ذات الألوان الزاهية المختلفة، وبين الحين والحين يهب نسيم لطيف محمل بعطر الأزهار المتفتحة التى تغطى المزارع والأشجار الخضراء، وكانت الحقول والمراعى تزخر بالماشية وأطفالها الفتية التى ولدت فى الربيع. وكان نبات القمح المترعرع قد أوشك أن يتم نضجه، وكانت الأشجار العالية المورقة عامرة بأسراب من الطيور تغنى صباح مساء، وكانت أسراب النحل تهيم على وجهها تمتص رحيق الأزهار وتعود مسرعة به إلى خلاياها لتعمل الشهد الشهى. . . لذيذ الطعم.

وسط هذه البيئة العامرة بما يبهج النفس ولدت هيلين كيلر ـ من أبوين سويين ـ ولقد كانت طفلة سوية جميلة توسم فيها أبواها النجابة والذكاء وأحاطاها بحبهما وعنايتهما ـ ولقد بدت دلائل الذكاء

فعلا مبكرة على الطفلة، فكانت دائمة الحركة شديدة اليقظة، سريعة التقليد لما يدور حولها من قول أو فعل.

وفى أحد الأيام وبعد أن فرغت الأم من استحمام طفلتها هيلين - وكان ذلك فى الهواء الطلق وتحت إحدى الأشجار المورقة - وبينما الطفلة فى حجر أمها إذ لفتت نظرها واستهوتها تلك الظلال المتحركة الراقصة، ظلال أوراق الشجرة على سطح الحشائش الخضراء، فانزلقت الطفلة من حجر أمها، ووقفت واندفعت تمشى وراء هذه الظلال وهى لم تتجاوز من العمر أكثر من سنة، كأنما تريد أن تقبض على هذه الظلال بيديها... ولكنها ما لبثت أن سقطت على الحشائش صارخة مستغيثة بأمها التى أدركتها فى دهشة وفرح.

- تسعة عشر شهرا مرت على تلك الطفلة السوية الجسم والعقل، كانت خلالها تنمو كما ينمو الأطفال الأصحاء فى طهارة وبراءة ومرح، وقد احتضنتها الطبيعة الجميلة، وابتسم لها كل شىء، وأخذت منذ استطاعت أن تمشى على قدميها تعبث بكل ما حولها وتحاول أن تكتشف كل ما يقع تحت بصرها تحلِّله وتركِّبه وتهدمه ثم تبنيه، تجرى وتقع وتصرخ وتضحك، تطارد الطيور والدواب، وتسابق الفراشات كأنما تريد أن تقبض عليها، تلاعب كلبها الذكى الحنون وهو يلاعبها، وتجذب ذيل القطة الوفية وهى تداعبها وتخدشها، كانت تلهو وتلغو وتحاكى كالقردة - أمها وأباها وخوادمها

والطيور والحيوانات حولها ـ كانت مليئة بالطفولة المرحة، فملأت منزل أبويها بمرح الطفولة وسعادتها.

هكذا كانت الطفلة هيلين كيلر حتى شهر فبراير سنه ١٨٨٢م.

*** هيلين تقع فريسة للمرض**

كان الربيع فى طليعة أيامه، وقد أخذت موسيقا الطيور تغمر الفضاء بألحانها، وبراعم الأشجار والنباتات تطل على العالم من أكمامها، وكانت أشعة الشمس الذهبية الواهنة تملأ الجو دفئا رقيقا، وفى وسط هذا العالم المرح الوادع كانت الطفلة المسكينة هيلين تعانى حمى خطيرة حلت بالدماغ والأمعاء، وتقاسى آلاما وأوجاعا. لقد أضنتها الحمى وأشعل لهيبها فى عينيها ناراً محرقة، وجفف أوصالها وأطرافها

وكانت الطفلة فى صراخها وتضرعها تجد من أمها الحنون ذلك الملاك الرحيم الذى يشاركها فى الآلام، ويمسح بيده الرقيقة ما يستطيع من أوجاع.

وكانت معجزة يوم أن غادرت الحمى القرمزية تلك الطفلة المضناة بتلك السرعة العجيبة التى حلت بها. غادرتها الحمى، ولكنها خلفت وراءها أثراً ـ أثراً فى جسمها وفى مزاجها وفى عقلها.... لقد أغلقت تلك النوافذ التى كانت تطل منها على العالم المرح الجميل، وتركتها سجينة فى ظلمة حالكة وصمت عميق حزين، ولكن تلك

الطفلة المسكينة أخذت تألف هذه الحياة الجديدة ـ حياة الصمت والظلام بعد أن قضت فترة قصيرة بدنيا النور والضياء مع خضرة الأشجار ونضرة الأزهار، وموسيقا الأطيار وطنين النحل والحشرات وحفيف الأغصان والأوراق. . .

امحى كل هذا من العالم حولها. . وإن كانت قد بقيت منه ذكريات باهتة متداعية. استمع إليها وهى تسجل لنا تلك الذكريات. . . ذكريات تجاربها وحياتها خلال السنوات الأولى من طفولتها تلك التى تلت فقدانها السمع والبصر: إنها تقول:

«ليس فى استطاعتى أن أستعيد ذكرى كل ما حدث فى الشهور التى تلت مرضى، ولكنى أذكر أننى كنت أجلس فى حجر أمى أو أتمسك بذيل ثيابها وهى تتحرك هنا وهناك فى المنزل لقضاء الحاجات، وقد قامت يداى مقام الحواس، الأخرى فهى التى كانت تلمس كل شىء مادى حولى، وتلاحظ كل حركة وبذلك تعلمت أموراً كثيرة، وشعرت بالحاجة إلى التفاهم مع غيرى، فلجأت إلى استخدام الإشارات البدائية، فكنت أدير رأسى يمينا وشمالا حينما أعنى (لا) وأحنيه إلى الأمام وأرفعه حينما أعنى (نعم) وإذا أردت قطعة خبز قلدت قطعه بالسكين إلى قطع وفرش الزبدة عليها. وإذا ما رغبت فى أن تعمل أمى (جيلاته) قلدت إدارة يد آلة (الجيلاته)وتحريكها، وكذلك كنت أنتفض بجميع جسمى كما ينتفض العصفور الذى بلله القطر إذا رغبت فى حاجة معينة، وقد استطاعت أمى أن تجعلنى أفهم

كثيرا مما تريد، فكنت أصعد على السلالم لأحضر ما تريد إن كان فى الطابق الأعلى أو أذهب لإحضاره إن كان فى مكان آخر. . . . نعم إننى مدينة لحكمة أمى وحبها بكل ما فى ليلى المظلم الطويل من نور وسعادة»

خمس سنوات مضت على تلك الطفلة ـ منذ أن أصابتها الحمى إلى أن جاءتها المربّية ـ وهى فى سجن العمى والصم والبكم. . . . نعم والبكم فلقد نَسيت بالتدريج نطق تلك الكلمات المعدودة التى كانت قد تعلمت نطقها قبل المرض. كانت الطفلة أثناء هذه الفترة ـ فترة الطفولة الأولى وتأسيس الشخصية ـ تكافح العراقيل الطبيعية التى حرمتها النمو التلقائى السليم ـ تكافحها بطريقة شعورية وهى عارفة ما أصابها من حرمان وبطريقة غير شعورية حينما تثور وتهيج وتتحدى فى عناد من حولها من الكبار الذين يحبونها ويعطفون عليها. ولقد كان سلوكها فى هذه الفترة مزيجا من الشيطنة، والذكاء والأسى، أما الشيطنة فهى لطفلة فى هذه السن مليئة بالنشاط تجنح بحكم غرائزها إلى التخريب والكشف والاطلاع واللعب، ولكن قواها المقيدة لم تستطع التعبير الطبيعى عن هذه الغرائز والميول وإشباعها؛ لذلك كانت تثور وتهيج كأنما تريد أن تحطم هذه القيود، وأما الذكاء فذكاء طفلة أثبتت السنون ـ بالرغم من حرمانها وسائل المعرفة بفقدان السمع والبصر والكلام ـ أنها عبقرية فريدة في طرازها! وأما الأسى فأسى قلب غير وديع لم يقترف من الذنوب ما يستحق من أجله كل هذا الحرمان من متع الطفولة وحرية الطفولة.

ـ كانت لها فى هذه الفترة صديقتان أثرتا فى حياتها حينذاك تأثيراً قويا: إحداهما تسمى «بل» وهى كلبة الأسرة التى كانت تستعمل للصيد فى عهد صباها، والأخرى تسمى (مارتا) وهى بنت الزنجية الطاهية، وكانت تكبرها بثلاث سنوات، تزاملها فى اللعب والجرى والعبث. أما (بل) فكانت عجوزاً كسلى تؤثر النوم أمام موقد النار على الجرى والقفز مع هيلين، وكانت هيلين تحاول اصطحابها والتحدث إليها بالإشارة وتعاكسها أحيانا، ولكن العجوز كانت ترفض فى صبر ورزانة وعدم اكتراث، فإذا ما ألحت عليها هيلين كانت تغادر مكانها وتمطى فى بطء وكسل، ثم تنظر إلى الطفلة المكفوفة نظرة إهمال، وتنصرف إلى الجانب الآخر من الحجرة حيث تقبع كما كانت.

أما (مارتا) فكانت الرفيق المطيع الوفى... كانت رهن إشارة سيدتها هيلين وطوع أمرها، فقد فهمت معانى إشاراتها، وكانت تقبل فى خضوع أوامر سيدتها؛ لتنجو من الصفعات التى تنهال عليها لو أبدت ممانعة. وكانت هيلين تمضى مع هذه الزنجية الصغيرة معظم وقتها: أحيانا فى المطبخ كأنها تعجن وتطبخ وتلعب بلعبها الصغيرة، وأحيانا فى حظيرة الطيور تغذى الدجاج والروميات التى كانت تلتقط الحب من يديها، فتبعث فى نفسها سعادة وفرحا، وأحيانا فى الحقول وبين الأعشاب تبحث عن بعض الطيور وأعشاشها، فإذا ما وجدت عشا أصرت على أن تحمله بنفسها إلى المنزل، وأحيانا فى إسطبل

الخيل وزرائب الماشية تلاعبها وتلمس ضرع الأبقار عندما يحلبها الخدم - كانت تفعل كل هذا بالرغم من عماها وصممها، وذلك بمعونة رفيقتها الزنجية، ومن فى الضيعة من العمال والخدم. وكانت مع هذه (الشيطنة) وهذا الذكاء سريعة الغضب عنيدة تفعل ما تريد وإلا حطمت كل ما يقع تحت يديها، وكانت ترفس خادمتها إذا ما خالفت أمرها وتهيج وتصرخ كأنها تريد أن تعبر بهذه الانفعالات الصاخبة عما عجزت لغة الحديث الهادئة عن التعبير عنه.

لقد مضت عليها مدة وهى لا تدرك أنها دون غيرها من الأصحاء العاديين، لقد كانت تظن أن الناس مثلها يتخاطبون بالإشارات واللمس، ولكنها ذات يوم تبينت أن من حولها من الناس يتفاهمون بإفواههم لا بأيديهم، وهى تقول فى هذا الصدد:

«لقد لاحظت أن أمى وصديقاتها لا يستعملن الإشارات مثلى عندما يردن عمل شىء، ولكنهن كن يحركن أفواههن وشفاههن، وكنت أحيانا أقف بين أشخاص يتحدثون فألمس بيدى شفاههم، ولكنى لم أستطع فهم ما يقولون. عند ذلك يثور غضبى، فأحاول أن أحرك شفتى محاكاة لهم وأصدر أصواتا مختلطة وضوضاء فى حدة وانفعال، ولكن دون جدوى؛ لذلك كنت أثور أحيانا وأضرب بيدى ورجلى يمينا وشمالا وأصرخ حتى يتملكنى الإعياء»

هكذا ظلت المسكينة هيلين مدة خمس سنوات لم يترك والداها أثناءها بابا إلا طرقاه؛ أملا فى علاج الطفلة أو تربيتها، ولكن

جهودهما ضاعت سدى. فالمدرسة العادية لا تقبل طفلة صماء عمياء، ولو كانت صماء فقط لأمكن تربيتها بطريق البصر، ولو كانت عمياء فقط لأمكن تربيتها عن طريق السمع. أما وقد فقدت الحاستين فقد صارت تربيتها معجزة لا يقوم بها مرب عادى، ومع كل هذا لم يفقد الوالدان كل أمل.

*** ماذا كان من أمر هيلين بعد ذلك؟**

لقد نما عقلها بنمو سنها وتجاربها المحدودة - تلك التى كانت تصل عن طريق اللمس والشم والحركة، وصارت تشعر كل يوم بأن السجن الذى تعيش فيه يضيق بها شيئا فشيئا، وأن يدا خفية تشدد عليها الخناق، وأن لغة الإشارة لم تعد تكفى للتعبير عن أفكارها ورغباتها النامية، فكانت تحاول بطرق أخرى قاصرة وإن تكن مؤثرة، كانت تصرخ وتصيح وتنفعل وتبكى وترتمى على الأرض مرهقة يائسة. ولم يكن يخفف عنها أسى هذه الحالة النفسية الحادة إلا ذراعا والدتها، فكانت ترتمى بينهما كلما كانت قريبة منها. وكانت أمها تخفف عنها بلمساتها وقبلاتها ودموعها حدة هذه الثورة المشروعة. كانت الأم تفعل ذلك وقلبها يحترق لما تعانيه ابنتها، ولم يكن الأب أقل حزناً من الأم على ما أصاب الطفلة المسكينة. ولكن ماذا يفعل الحزن والأسى... لقد عجز الأطباء المحليون عن العلاج، وكان الأمل الوحيد لتربية هذه البائسة فى الدكتور (ساميول هاو) مربى (لورا بردجمان) وصاحب الأساليب المشهورة فى تربية الصم والعمى، ولكنه قد مات منذ سنوات. على أن العلم يجب ألا يعجز عن حل هذه المشكلة... وهل تموت الطريقة بموت صاحبها....؟

بلغ الأسرة خبر طبيب مشهور بعلاج أمراض العيون المستعصية فى مدينة بالتيمور، فسافرت الطفلة ـ وكانت قد بلغت السادسة من العمر ـ مع والديها إلى تلك المدينة، ولكن هذا الطبيب الذى لم يجد وسيلة للعلاج لم يفقد وسيلة للنصح. فقد ذكر للوالدين أن لا أمل فى علاج البصر، وأنه يجب أن يحاولا علاج السمع، وربما نجحا فى العثور على آلة لتحسينه أو استرداده إذا استشارا الأستاذ العالمى الشهير الدكتور (ألكسندر جراهام بل) مبتكر التليفون وأستاذ علم وظائف الأعضاء الصوتية بجامعة بوسطن. وكان لهذا الأستاذ خبرة طويلة فى تعليم الصم، بل إنه أول من أسس فى الولايات المتحدة سنة ١٨٧٢ مدرسة لإعداد مدرسى الصم، وكان هو يقوم بالتدريس فيها، وله تجارب ناجحة فى معالجة الصم وتعليمهم.

استقبل الدكتور (بل) الأسرة الحزينة ببشاشة ووداعة وأمل، شأن العلماء المتواضعين. ولقد سجلت الطفلة هيلين كيلر هذه الزيارة بقولها:

(لقد حملنى الدكتور (بل) على ركبتيه فيما كنت أفحص ساعته بأصابعى، وقد جعلها تدق دقات عالية من أجلى، فأحسستها بيدى، وقد أدركت أنه استطاع أن يفهم إشاراتى، ولكنى ما كنت أحلم أن هذه المقابلة ستكون الباب الذى أنفذ خلاله من الظلام إلى النور، ومن الوحشة إلى الألفة والصداقة والمعرفة والحب).

لم تحقق زيادة الدكتور (بل) أمل الوالدين فى علاج السمع، فقد عجزت وسائله العلمية عن أن ترد إلى ابنتهما تلك الحاسة وهى الحاسة الثانية المفقودة، غير أن هذه الزيارة لم تكن خاتمة المطاف ولا

نهاية الأمل، فقد أشار الدكتور (بل) أن يكتب الوالدان قصة طفلتهما، ويبعثا بها إلى (معهد العمى) فى مدينة (بوسطن) حيث قضى الدكتور (هاو) أيام حياته يجرى تجاربه، ويطبق أساليبه فى تعليم الصم والعمى وتربيتهم. . . . فلعلهما يجدان عند المدير الجديد لهذا المعهد عونا أو توجيها. فكتب الوالد بذلك فى الحال، ولم تمض أسابيع حتى جاء الرد مبشراً بأن مربية اختصاصية فى تعليم الصم والعمى قد قبلت أن تسافر إلى مقر أسرة كيلر؛ لتقوم بتربية الطفلة المكدورة هيلين. فكان هذا الخبر أول بصيص من النور والأمل يشرق على منزل الأسرة المهمومة.

وهاهى ذى تصف لنا نوع الحياة التى كانت تعيشها:

(لم أك أدرى ما كان يخبئه لى المستقبل من مفاجأة أو عجب، وكان قد افترسنى الغضب ومرارة الحياة، واعترانى الفتور بعد الكفاح العنيف. تصور نفسك على سفينة فى بحر لُجىٍّ وقد أحاط بها ضباب كثيف مظلم وفصلها عن المعمورة، وتصور السفينة ومن عليها يتحسون الطريق إلى الشاطئ بالآت الملاحة وأنت تنتظر بقلب مرتجف دَقَّاق شيئا يحدث فى أية لحظة. لقد كنت أنا تلك السفينة، ولكن بدون (بوصلة) أو (دليل).

هكذا كانت هيلين فى وحشة وعزلة وتيه تتطلع إلى اللحظة التى تجد فيها نجاة ورفيقاً دائماً وصديقاً ملازماً وحبا لا ينافسها فيه أحد، ومعينا يخرجها من الظلام الموحش إلى نور العالم الحر حولها.

لقد صرخت روحها بكلمات غير منطوقة ـ أيها النور امنحنى شيئا من النور ـ فكان ما أرادت عندما جاءتها مربيتها؛ لذلك كان أهم يوم

تذكره فى حياتها هو اليوم الذى وصلت فيه هذه المربية (آن سليفان) لقد كان يوم بعثها من القبر المظلم.

نمو القدرة على التعلم والتصور
عن طريق تدريب الحواس الأخرى

اقترحت آن سليفان أن تذهب مع الطفلة ليعيشا معا فى مكان بعيد عن دائرة الأسرة، وقدنجحت فى ذلك.

وكانت الطفلة هيلين طموحًا نشطة مغرمة بالبحث والكشف، وكانت يداها وسيلتها الوحيدة لتحقيق ذلك، فلم تكد تضع يدها على المربية حتى ذهبت تتحسس وجهها وثيابها وحقيبة يدها، ثم أخذت الحقيبة وحاولت فتحها، فلما لم تستطع صارت تبحث عن مفتاحها، ولما لم تجده توجهت إلى السيدة تعمل إشارات تدل بها على طلب المفتاح لفتح الحقيبة، وتلح فى الطلب.

وتصف لنا هيلين ما حدث بينها وبين آن سليفان فى اليوم التالى لوصولها، يوم بدأت الطفلة أول درس فى تعلم اللغة بواسطة التهجى فى اليد فتقول:

«فى صباح اليوم التالى أخذتنى - آن - إلى حجرتها، وقدمت إلىَّ دمية (عروسة) ولما لعبت بها قليلا قربتنى منها وأخذت يدى، وتهجت فيها باستعمال حروف الهجاء اليدوية (دم ى ة) حرفا حرفا»

ولطريقة التهجى فى اليد هذه نظام خاص وضع للتفاهم مع الصم والعمى، فلكل حرف هجائى رمز يدوى خاص، والمتكلم أو الوسيط يشكل إصبعه أو أصابعه وفقا لكل رمز، ويلمس بها كف المخاطب أو أصابعه وبتتبع هذه الرموز عندما تلمس الكف يفهم المخاطب الحديث، وباستعمال الأصم الأعمى هذه الرموز بلمس كف مخاطبه يستطيع أن ينقل إليه أفكاره.

ولقد اتخذت الآنسة آن سليفان يد هيلين وسيلة لنقل الكلمات إليها، وبدأت بكلمة (دمية) فكانت تتهجاها بطريقة الرموز الملموسة، وكانت هيلين موفقة فى إدراكها وفهمها هذه الرموز ومدلولها، وكانت هذه العملية فى تعليم هيلين اللغة (عملية استقبال) تشبه سماع الطفل السليم الكلمة أو الكلمات المنطوقة. أليس تعلم اللغة عبارة عن عمليتين (عملية استقبال أو استماع) عند الطفل السليم، ثم عملية (التقليد أو النطق) ؟ أما هيلين فكانت تقلد ما تستقبله من كلمات تهجتها لها مربيتها فى يدها بطريق اللمس والحركة، فكانت الطفلة تقلد هذه الرموز وتستعملها بلمسها كف المربية كذلك معبرة عن الكلمات التى تريد أن تقولها أو أن تتمرن على تهجيها.

واستمرت هيلين تعمل ذلك فى كل ما تعلمته من كلمات بعد ذلك، ولم تكن تدرى أنها كانت تتعلم أسماء الأشياء إلا بعد بضعة أسابيع من بدء التعلم، حينما أدركت أن اللمسات والحركات التى كانت تتلقاها على يدها والتى كانت تحاكى هجاءها بطريق اللمس

الرمزية - هى (اسم) للمسمى المحسوس الخاص الذى تناولته وفحصته أثناء تلقى هذه اللمسات، وبهذا الأسلوب كانت تقرن اسم الشيء بمدلوله عن طريق الربط والمجاورة، وكانت كلما تعلمت هجاء كلمة تتلقى رموزها الملموسة فى يدها تقلدها كذلك فى يد المربية بطريق اللمس الرمزية.

أثارت طريقة تعلم اللغة والتخاطب بواسطة حروف الهجاء اليدوية هذه - اهتمام هيلين، فصارت تلعب بأصابعها متهجية كل كلمة عرفتها، وكانت مربيتها الصبور تتلقى منها هذا الهجاء وتصلحه إن كان خطأ أو تؤكده إن كان صوابا. وكانت هيلين تذهب إلى أمها فى فرح الأطفال وإعجابهم تعرض عليها وفى يدها - هجاء الكلمات التى تعلمتها.

واستمرت آن سليفان بهذه الطريقه تعلم تلميذتها، فتختار من الأسماء قليل الحروف، ومن المسميات المادى والمحسوس وماله صلة وثيقة بحياة التلميذة اليومية وبيئتها المحيطة بها، واستطاعت هيلين فى بضعة أيام أن تتعلم هجاء الكلمات (كوب)، (دبوس)، (قبعة)، (اجلسى)، (قفى)، (امشى)

ولم تكن مهمة آن سليفان تعليم اللغه فقط، ولكنها تربية وتثقيف كذلك، فلجأت إلى اللعب واتخذت منه وسائل لهذا التثقيف، واستجابت الطفلة لهذه الوسائل برغبة وشغف، وإن لم تتحقق النتيجة المرجوة إلا بعد صبر ومحاولة.

أعطتها المربية يوما بطاقة مخرمة وإبرة وخيطاً، وطلبت إليها أن تملأ الخروم بالخيط فى اتجاه رأسى، وتركتها بعد أن شرحت لها ما تعمل... فلم تلبث الطفلة إلا قليلا حتى أتمت الواجب بنجاح ودقة، وهنا كانت الفرصة المناسبة لتعليم كلمة (بطاقة) فعلمتها إياها بالطريقة السابقة، واستجابت لها الطفلة، فراحت تتهجى الكلمة الجديدة فى يد مربيتها، وفى يوم آخر جلست (آن) تكتب رسالة، فكانت (هيلين) تقاطعها وتعبث بالورق والحبر والنشاف، ولجأت (آن) إلى استخدام اللعب مرة أخرى، فناولت الطفلة خيطا وخرزاً من الخشب ومن الزجاج، وشرحت لها كيف تنظم فى الخيط خرزتين من الخشب وخرزة من الزجاج، فعكفت الطفلة على واجبها الجديد الذى وجدت فيه ملهاة وتسلية وانصرفت إلى عمله بسرور وجد. وهكذا وجدت المربية فى اللعب والحل والتركيب الأساليب التى استطاعت بها أن تجمع بين تربية الطفلة وتعليمها اللغة.

وفى يوم من الأيام خرجت المربية مع تلميذتها إلى قرب حظائر البهائم حيث المضخة القائمة على البئر، وكان أحد العمال يدير المضخة، فيجرى الماء من فمها إلى ماعون تحتها، ووجدت المربية فرصتها المناسبة، فوضعت يد هيلين تحت الماء الجارى، وأخذت اليد الأخرى، وتهجت فيها كلمة (ماء) فى وضوح وتأكيد، وفى تلك اللحظة أشرق على ذهن الطفلة فجر الكلمة التى كانت قد عرفتها منذ سنوات وغاب عنها نطقها، وشعرت فجأة كأن ذكرى غامضة منسية قد عاودتها، وأدركت أن (الماء) هو اسم ذلك الشىء البارد المنعش الذى

كان يجرى على يدها، وكأنما أيقظت هذه الكلمة ومدلولها نفس الطفلة ومنحتها الضوء والأمل والحبور، وهكذا مضى يوم شعرت فيه هيلين بأنها فى طريقها إلى حياة جديدة وعالم رحب، وآوت الطفلة إلى مضجعها آمنة مطمئنة تشعر بأنها كانت أسعد طفلة، وتتمنى طلوع شمس اليوم الجديد.

وفى صباح يوم كانت آن فى حجرتها، فدخلت عليها هيلين تجرى فى حماسة ولهفة، واندفعت تحمل إليها خبرا لم تفهمه المربية. ولكن هيلين استمرت تقول بطريق الهجاء اليدوى: (كلبة... طفلة) وتشير إلى أصابعها الخمس واحداً فواحداً، وتمصها بفمها. ثم أصرت على أن تصحبها آن إلى خارج المنزل، فاستسلمت المربية لهذه الرغبة، وسارت معها إلى ركن منعزل بجوار البئر. وهناك رأت الكلبة وقد وضعت خمسة جراء. وهناك أخذت هيلين تشير إلى الجراء وأمها فى حماس وفرح وتأثر، وتكرر عباراتها وحركاتها.

وفى مثل هذه المناسبات كانت آن تجد الفرص لتعليم تلميذتها كلمات جديدة، وقد علمتها فى تلك المناسبة كلمة (جرو) وكلمة (خمسة) وكلمة (صغير) وما كان الذكاء وحده كافيا لو لم تكن المربية الصالحة.

حلت اليد إذَنْ محل الأذن فى تلقى الكلمات والجمل، وصارت الوسيلة إلى فهم اللغة المنطوقة. أما اللغة المكتوبة فحاستها عند الأصحاء هى العين، وهى ما أعوزت هيلين. وعندما شرعت مربيتها

تعلمها القراءة كان لابد لها من أن تتخذ مكان العين بديلا، فاتخذت اليد أيضا، وصارت اليد تقوم بوظيفتى السمع والبصر.

ولما شرعت آن سليفان تعليم هيلين القراءه، لجأت إلى طريقة بريلFouis Braille (تلك الطريقة التى اشتهرت بعد وفاته سنة ١٨٥٢ وهى الطريقة العالمية المتخذة فى كتب العميان بارزة الحروف وفى تعليمهم القراءة والكتابة.

فأحضرت لها مجموعة من البطاقات الصغيرة، وكتبت على كل بطاقة بحروف بارزة كلمة تدل على شىء من الأشياء أو معنى من المعانى، وأخذت تعلم تلميذتها قراءة الكلمة بإمرار إصبعها على الحروف البارزة وبوضع كل بطاقة على مسماها. واستطاعت هيلين بالتمرين والتكرار أن تميز هذه الكلمات وأن تفهم مدلولها، كما استطاعت بالتدريج أن تعرف الرمز البارز المقابل لكل حرف من حروف الهجاء.

ثم أخذت هيلين ـ تحت أشراف مربيتها ـ فى تكوين جمل من الكلمات التى فى البطاقات، فكانت تنظم الكلمات فى إطار، وترتبها بحيث تكون الجملة التى تريدها.

ووجدت هيلين فى الطبيعة ما تحتاج إليه من مواد علم الحيوان والنبات والجيولوجيا، فالحشرات والطيور والحيوانات والأشجار والأزهار والثمار والأصداف والأحجار ـ كل هذه الأشياء كانت مواد فحصتها أصابع التلميذة، وشمتها أو ذاقتها وسألت مربيتها عنها. لقد كتبت هيلين كيلر في كتاباتها بعد ذلك تقول:

«لقد فحصت لوزات القطن المتفتحة، ولمست شعرها الناعم، وأحست بصفير الرياح وهى تمر خلال سيقان الذرة فى حقولها، كما أحست بحفيف أوراق الأشجار الهين الخفيف، وبنفير مهرى الغضوب المحتج كلما قبضنا عليه فى المرعى وألجمناه. لا بل إننى لأذكر جيداً رائحة زفيره المحملة بروائح الأعشاب والبرسيم».

لقد تفتحت أمام الطفلة العاجزة أبواب مصطنعة لدنيا المعارف والطبيعة والحياة، وأخذت الطفلة عن طريق هذه الأبواب تدخل إلى عالم المعارف والطبيعة والحياة؛ لتتعلم وتفهم وتنمى علمها بما حولها، ومعها ذكاؤها وصبرها ومثابرتها وتفاؤلها.

وقد ألحت عليها نفسها بالنطق فأصرت على أن تناله، ولم يكن عجزها عن النطق لعجز فى أعضائه، ولكن لحرمانها السمع. وبالرغم من أن حياتها الدراسية كانت مرهقة ومضنية، فقد ظلت هيلين كيلر فى محاولاتها نحو التعلم - بمساعدة مربيتها الوفية - والتى كانت تصاحبها فى فصول الدراسة وفى الجامعة؛ لتنقل إليها، وتترجم لها المعلومات عن طريق لمس اليد - حتى أمكنها بعد كفاح طويل أن تحصل على درجة البكالوريوس فى الآداب، فى وقت لم يكن قد شاع فيه تعليم المرأة تعليما جامعيا فى الولايات المتحدة.

وبالرغم من أنها حاولت منذ أن كانت فى العاشرة من عمرها النطق، فقد كان نجاحها فى هذه المحاولة قليلا، فلم تكن لتخرج الحروف من مخارجها الصحيحة؛ لحرمانها السماع، غير أنها استمرت

فى هذه المحاولات سنوات أخرى تقدمت أثناءها تقدما محسوسا مكنها من الجرأة على مخاطبة الجماهير فى عدة مناسبات، وبالرغم من عدم وصولها إلى النجاح الذى كانت ترجوه فى مخاطبة السامعين فى هذه اللقاءات، فقد كسبت شيئا من الثقة بنفسها. غير أنها حاولت محاولات أخرى، فاتصلت بالناس فى لقاءات أخرى، وشعرت بشىء من الرضا عن نفسها، وأحست بكثير من السعادة يشعر به المرء حين ينال استحسان الناس وتشجيعهم.

وفى سنه ١٩٣٢ زارت سكوتلاندا بدعوة من جامعة جلاسجو التى منحتها دكتوراه الشرف فى القانون.

*** من أقوال هيلين كيلر وخبراتها:**

كثيرا ما قالت السيدة هيلين: إنها تبصر بيديها، وهى تقول أيضا إن يديها دليلها على خلق الناس وجاذبيتهم. فحينما تسلم على أحد تشعر بمجرد أن تلمس يده يدها بما فى قلبه من حنان أو رحمة أو شدة أو جفاف أو قسوة، فبعض الناس عندما أضع يدى فى يدهم أحس بأنهم خلوا من المرح، وأحس كأننى أستقبل ريح الشمال الباردة، وبعضهم تشع من أيديهم حرارة تغمر قلبى وتدفئه.

ولكن كيف كانت السيدة هيلين تدرك العالم المحيط بها من أصوات وأضواء وألوان وضوضاء وحركة وتقلب فصول؟ بل وكيف كانت تدرك المعنويات التى لا يدركها الأصحاء عادة إلا بطريق

المحسوسات؟ فى الحقيقة أنه لا بد لعلماء النفس والباحثين من أن يستعينوا بالتأمل الباطن لدى المكفوفين؛ عسى أن يكشف لهم ذلك عن بعض ما خفى عنهم ـ ونجدها تجيب عن نفسها فى بساطة ويسر فتقول.

«يقولون: إن الصمم والعمى قد وضعا حائلا بينى وبين العالم الخارجى، ولكنهما فى الواقع فتحا أمام عقلى أبوابا واسعة يفد إلى منها مالا يحصى من الأحاسيس التى هى مصدر المعرفة لى والعظة والمتعة والتسلية. وإننى لأستطيع أن أعتمد على الحواس الثلاث الباقية عندى فى رحلاتى الكثيرة التى أقوم بها فى عالم المبصرات والمسموعات»

لقد كانت تخرج إلى الحقول فى الصباح المبكر؛ لتستقبل جمال الشروق، فتحس بالهواء النقى المنعش يقبل وجهها ويداعب شعرها، وتلمس بيديها شجيرات الورد محملة بالندى الصافى وعبق الأزهار الفواح، وكانت تتحس بيديها شكل قطتها اللطيفة وتقويس جوانبها، وتغوص بأصابعها فى فروتها الناعمة، وتمر يدها على ظهرها، فتستجيب القطة لها استجابة أليفة حبيبة، وترتبط بينهما المودة.

وثمة أشياء كثيرة تدركها بجميع جسمها، فهى تسمع هزيم الرعد المجلجل، وتحطم الأمواج المدوية على الشاطئ، وكانت تجلس على الرمل أو فوق الصخور، وتستقبل رذاذ الأمواج المنعشة تهبط على

جسمها وتلفه لفا. وكانت تحس بقطع الأحجار يحتك بعضها ببعض، زاحفة مع الأمواج والمياه إلى الشاطئ تارة ومتقهقرة معها تارة أخرى. وكانت تشعر بهجوم أمواج المحيط وزئيرها، وتأنس لكل هذا وتستمتع به.

لقد كانت حاسة اللمس عندها هى ذلك المنفذ إلى العالم، بها تتكون مدركاتها وأخيلتها وهى تسمع النغمة الموسيقية حين تضع يدها على القيثارة أو (البيانو) أو المذياع أو حلق المغنى، فهى تسمع النغمة الموسيقية ترتفع وتنخفض، وتقوى وتضعف، وتلين وتشتد، وكانت هيلين تفرح وتسعد بطريق اللمس.

أما الألوان واختلافها فتقول عنها «ربما كانت لا تشرق شمسى إشراق شمسكم، وربما كانت الألوان التى تغمر العالم حولكم لا تطابق الألوان التى فى ذهنى، نعم، وربما كانت زرقة السماء وخضرة الحقول التى تبصرونها غير ما أدركه، ولكنها مع ذلك ألوان عندى. وأنا أفهم أن اللون القرمزى غير اللون الأحمر؛ لأننى أعرف أن رائحة البرتقال تخالف رائحة الليمون» كانت تربط كل لون من الألوان بشيء محسوس له صفة خاصة تلمس: فاللون الأحمر الوردى يقترن عندها بخد الطفل الناعم الجميل أو بريح النسيم... أما اللون الرمادى فيرتبط عندها بملمس الشال الناعم يحيط بالكتفين... واللون البنى عندها نوعان: لون دافئ حبيب مرح

كلون ورقة الشجرة عند جفافها، ولون آخر مظلم كلون جذع الشجرة المتداعى أكلته السنون ونخره السوس. . . . وهكذا.

وقد قامت حاسة الشم فى حياتها بدور عظيم، وقويت عندها هذه الحاسة وصارت دليلها فى كثير من الحالات. وصار لكل رائحة عندها معنى مرتبط بها وذكريات خاصة لها: رائحة الأرض بعد المطر، ورائحة حظائر البهائم، ورائحة مياه البحر الملح، ورائحة بترول السيارات ورائحة صالونات السيدات، ورائحة الكتب الجديدة والكتب القديمة، ورائحة الأزهار فى الفصول المختلفة، ورائحة الناس. لقد صارت تميز كثيرا من الأشياء بروائحها، وصارت كل رائحة تحمل معها صورة وتاريخا ووجدانات وذكريات، وكانت تميز الدواب والمواشى. بروائحها وزفيرها وهى تقول فى هذا الصدد:

«إننى أعرف عن طريق شم الرائحة نوع البيت الذى أدخله»

«وذات مرة كنت فى إحدى محطات السكك الحديدية المزدحمة، فاقتربت منى سيدة وقبلتنى، ثم هرولت مسرعة فى طريقها. لم تترك أى شيء وراءها إلا رائحة عطرها، ولم ألمس حتى ثيابها. ومرت سنوات منذ تلك الحادثة ولا يزال عطرها حيا قويا فى ذاكرتى»

ولو أن هيلين كيلر لم توهب ما وهبت من خيال مبدع ما استطاعت أن تكون تلك العبقرية الشاعرة المنتجة، وأن تتخطى حواجز العجز البدنى إلى عالم المعانى والجمال والحقيقة والإنسانية. وهى تقول:

«إن الأعمى الذى لديه الخيال وروح العطف والإنسانية يشارك بالرغم منه المبصرين فى إدراكهم. فإذا ما سمع كلمات تدل على الألوان أو الأضواء أو الأشكال خمن واستعان بالحدس على فهم معانيها، مقارنا إياها بغيرها من المعانى التى يدركها بحواسه السليمة. وأنا كذلك أفكر وأتعقل وأستنبط كأن لدى خمس حواس لا ثلاثا»

* نبذة عن طرق تعليم الصم والبكم

انتشرت فى النصف الأخير من القرن العشرين مراكز تعليم الصم والبكم، ولم يكن انتشار تلك المراكز قاصرا على الدول الحديثة المتقدمة والمتطورة تكنولوجيا، بل إن ذلك قد امتد أيضا إلى الدول النامية.

وقد استحدثت الأجهزه السمعية والبصرية للوقوف على مقدرة الأطفال أو المعاقين فى الاستقبال وإخراج الألفاظ التى تلقى عليهم، ومدى معرفة ردود الفعل عند كل منهم وإمكانية معالجة ذلك عن طريق الأجهزة الخاصة بتوصيل النطق الصحيح إليهم، وتؤدى الاستشعارات الخاصة بهذه الأجهزة إلى معرفة قياس درجة عجز المعوق لنطق حرف، حيث يتسنى بعد ذلك ـ وبواسطة الجهاز نفسه ـ توصيل التصويب اللازم إلى مدركاته السمعية، كما استحدثت أجهزة أخرى لاستخدام عنصر اللون والشكل فى هذا المجال. . .

وعلى الرغم من استحداث العديد من الأجهزة فى هذا الصدد، فإن الطريقة اليدوية ما زالت تعتبر الطريقة المثلى فى تعليم المعوقين.

التكيف والتأقلم

تكاد تتفق كلمتا التأقلم والتكيف فى مدلولهما، وكثيرا ما نلجأ إلى استعمال أى من الكلمتين فيما يمكن أن تعبر عنه الأخرى.

ومعنى أن يتكيف المرء بأجواء معينة أنه قد تأقلم مع هذه الأجواء. وتتجسد عملية التأقلم أو التكيف فى حدوث تأثيرات فسيولوجية ونفسية لدى الإنسان تؤدى به إلى العودة تدريجيا إلى حالة الوضع العادى، أى حالته قبل حدوث المؤثرات الخارجية الطارئة.

وإذا تكرر التنبيه الحسى عدة مرات دون أن تتغير شدته، فقد يؤدى هذا التكرار إلى أن يفقد قدرته على التنبيه، وهذا ما يعرف بالتكيف. فحاسة الشم مثلا لا تلبث طويلا حتى يضعف انفعالها إذا تكرر تنبيهها بالرائحة نفسها مدة طويلة.

والإحساسات التى تحدث بالتماس المباشر كالأحساسات اللمسية والإحساسات الناتجة عن تنبيه كيميائى كما فى الشم والذوق تكون

كيفيتها الوجدانية من ارتياح أو عدمه أو من لذة أو ألم أقوى منها من الأحساسات البصرية والسمعية.

ومن الثابت سيكلوجيا أن العادة تقلل من الحساسية بدرجة معينة فى اتجاه معين، حيث يعتاد الجهاز العصبى والوصلات العصبية على أن يمر بهما نوع معين من الأحاسيس التى تفقد حدتها عند تكرار حدوثها، وقد تصل بالإنسان إلى نوع من البلادة الحسية.

وقد يحدث أن يصادف الإنسان أمراً ما يبعث فى نفسه البهجة فترة من الوقت، غير أنه لن يظل مبتهجا طوال الوقت، بل لا يلبث أن يعود إلى حالته العادية.

وكذلك قد يصاب الإنسان بما يحزنه، وقد يطول به الحزن والكمد.... غير أنه لا بد بمرور الوقت أن يصاب بشىء من النسيان أو التبلد أو التسليم أو الشعور بقلة الحيلة، فيعود إلى حالته السابقة تدريجيا، وهذا ما يمكن أن نسميه بالتأقلم أو التكيف أيضا.

وإذا ما غمر إنسان جسمه في ماء درجة حرارته أقل من درجة حرارة الجسم فإنه لا يلبث طويلا حتى يزول عنه الشعور بالبرودة، وكذلك إذا غمر جسمه فى ماء درجة حرارته تزيد عن درجة حرارة الجسم فإنه لا يلبث بعد فترة وجيزة أن ينقص شعوره بحرارة هذا الماء.

وقد يقف أحد العمال الجدد أمام أحد إفران صهر الحديد، فتلفحه الحرارة الشديدة المنبعثة من هذا الفرن، غير أنه لا يلبث طويلا حتى يتأقلم بهذا الجو، ويصبح الوهج والحرارة شيئا عاديا بالنسبة له لا يبعثان فى نفسه الضجر أو الخوف.

وقد يحدث فجأة أن ينقطع التيار الكهربائى عن أحد الأحياء بالمدينة... فإذا بصيحات الفزع والتضرر تصدر عن الناس والأطفال... ويسود المنازل والأماكن ظلمة حالكة تكاد الأعين خلالها لا تميز شيئاً حولها، ولكن ما تلبث الأعين بعد فترة وجيزة أن تميز تدريجيا ما حولها من قطع الأثاث والجدران... وبعد فترة أخرى يصبح المرء قادراً على أن يذهب أو يجىء دون أن يصطدم بشىء ما في طريقه.

ونظراً لأن القرويين قد اعتادوا الظلمة بعد غروب الشمس فإننا نلاحظ أن لديهم القدرة على تمييز الأشياء فى الظلام، فقد تسقط من أحدهم قطعة من النقود وسط الظلام الحالك، غير أنه يسهل عليه تمييزها والتقاطها... وما هذا إلا ضرب من التأقلم وتكيف الحواس...

وقد يثير انتباهنا نوم بعض الناس فى محطات السكك الحديدية يفترشون بعض المقاعد، ويغطون فى نوم عميق وسط ضجيج القاطرات وصفاراتها العالية...

وقد أتيح لى أن أرى بعض أهل الغابات وهم يسيرون حفاة الأقدام فوق الأشواك والأعشاب الجافة، وكأنهم يسيرون فوق طريق معبد دون أن يصدر عنهم تأفف أو تألم.

ويذكرنا ذلك بما يقوم به بعض الحواة الهنود من السير فوق الجمر أو النوم فوق وسائد من المسامير الحادة، فلا تخترق جلودهم أو تلحق بهم الأذى. كل هذه وتلك ليست إلا حالات متباينة للتأقلم والتكيف، وقد تكون الحواس المختلفة فى حاجة إلى بعض الوقت لاكتسابها.